في النقد الألماني

النقادة الكبير ليسنغ

(Lessing)

حياته ومذهبه

(١٧٢٩ - ١٧٨١)

للأستاذ خليل هنداوي

ما عرف الأدب ناقداً كليسنغ جباراً صحيح المقاييس ، بليغ التأثير ، لا يبني مذهبه على المدرسة الأدبية القائمة في عصره ، وإنما يبني مدرسته الجديدة لترتكز عليها مدرسة للأدب جديدة ، يوم لم يكن عند الجرمانيين أدب بارز . فحار الناقدون في تفهم هذا الناقد الذي افتتح أدب أمة عظيمة بالنقد ، وانما عهدهم أن يخلق الأدب النقد كما يخلق الأديب الناقد .

نشأ ليسنغ ميالاً في بدء عهده إلى أدب الأوائل ، وما كاد يتمكن من هذا الأدب حتى تفتح لعينيه أفق جديد يريد استكشافه ، يحث معاصريه على السير معه حثيثاً ليكون لهم مثل حظه من هذا الاستكشاف ، وما أصدق من قال : (كان الأدب الألماني قبل ليسنغ مفازة يفتقر السائر المتخبط فيها إلى هادٍ ، وهذا الهادي لم يكن إلا إياه) هذا الذي أنار السالك وهدى الأدباء إلى سبيل في الأدب قويمة ، يبدي لهم مكامن الابداع ومواطن الخطأ ، وأسس الأدب الجديد على قواعد النقد ، وصاغ الشعر مزيجاً من الفن والأدب والفلسفة ، فكانت نفسه في جميع حالاتها مصابة بطلب المعرفة ، هذه المعرفة التي ظن أنه لابدَّ ملاقيها ، فذهب وراءها في أحناء الكتب والصحف ، وتحرى عنها في مشاهد الوجود .

دخل في أول نشأته أحد الأديرة يتلقى اللغات القديمة التي كانت لب برامج التعليم القديم ، فأبدى من الذكاء والانتباه ما ترك أساتذته في دهشة منه ، حتى قال عنه أحدهم : (نحن لا نستطيع أن نقوم بواجب الشكر لهذا الطالب ، فان الدروس التي كان رفاقه يستثقلونها كان يجدها لسهولتها كالألعبة ، إنه لجواد يبتني علوفة مضاعفة) . حتى إذا بلغ السابعة عشرة من عمره انكبَّ على علم اللاهوت ، ثم تتلمذ للحياة بعد أن أنجز تتلمذه للكتب ، تلك الكتب التي قال عنها في إحدى رسالاته « إنها صنعت مني عالماً عارفاً ولم تصنع مني إنساناً ، سأبدأ عاجلاً بدرس أطواري » فترك علم اللاهوت وعمل على جمع رواياته التمثيلية ، وقد حثه قريب له أديب على الاختصاص بهذا الفن ، فمثلها غادة لامعة نجحت في أداء تمثيلها ، فزاده ذلك انصرافاً إلى هذه الحلبة ، حتى ظن أن هذا الفتى لن ينصرف بعد اليوم عن الفن الروائي .

على أن الضعف ليبرز في هذه القطع التي عرضها ، ويغلب على أسلوبها اللون الفرنسي الذي كان يصبغ جميع الآثار الألمانية ، وكان مذهبه فيها نفس المذهب المدرسي الذي كان (راسين وكورني وموليير) يبتدعونه ويتبعونه . كأنه كان يؤمن بجمال هذا المذهب ويجمل نفسه على الأخذ به . ولكنه في بعض نظراته يشن الغارة على هذا المذهب ، ويطلب إلى معاصريه ألاّ يكونوا مقلدين لأذواق غيرهم . وإنما الأجدر بهم أن يتفهموا مذاهب غيرهم وألا يكونوا مقلدين لها . وينهاهم عن التهافت على أدب أمة واحدة كالأمة الفرنسية ، وهنالك آداب مهملة كأدبها جديرة بالدرس والتمحيص ، وفي هذا الصدد قال كلمته المأثورة « إذا أراد الألمان أن يتبعوا مذهباً يلائم طبيعتهم وجبلتهم فليتبعوا الأدب الانجليزي الذي هو أدنى لهم من الأدب الفرنسي »

وقد أشار في أكثر من موضع الى هذه الروح التي شاء أن يغرسها في أدباء عصره . وهو الذي كتب في احدى رسالاته ينتقد المؤلف المسرحي (جوتشيد) ويؤاخذه لاسترساله الى الروح الفرنسية : « يطمع هذا الكاتب في أن يمثل دور المبدع في مسرحنا الجديد ، ولكن ماهو هذا المسرح الجديد ؟ انه مسرح نصف روحه فرنسية . . . ولعل صاحبنا لا يحفل بهذه الصفات إن لاءمت الروح الألمانية أو لا ؟ وهو لو أنعم النظر في آثارنا القديمة لأوحت اليه أن الأدب الانجليزي هو أكثر ملاءمة لروحنا ، وأننا نتوق الى التأمل والتفكر أكثر مما يسمح به الأدب الفرنسي لنفسه ، وإن الأدب الذي تتمثل فيه الروعة والعظمة والظلمة هو أكبر سلطاناً علينا من أدب الرقة واللوعة والحب ، وإن البساطة في الأدب لتضنينا أكثر من حالاته المركبة

المهوشة . . . يجب عليك أيها المؤلف أن تخط لك طريقاً يحملك الى المسرح الانجليزى . . . »

وقد كان انقلابه لجأة الى هذا المذهب وهذا الأدب موضع دهشة ، إذ تبادر الى أذهان بعض النقاد أن شكسبير وحده هو الذى أثر فى ليسنغ ، على أن الأسباب الحقيقية التى ساقته الى هذا الأدب كانت أعمق من ذلك . فليسنغ بعد أن درس حق الدرس أخلاق الشعب الألمانى وجد أن المأساة الحماسية هى التى تبسط تأثيرها فى النفوس . وأن المأساة المجردة ينبغى لها أن تهبط درجة الى عالم الحقيقة ، وأن الكوميديا قد تكون أدنى الى الحقيقة ، وهى التى تثير ما تثير من ضحك ومن بكاء .

وفى النهاية انغمس ليسنغ فى التأليف المسرحى . فكان فى أول أمره يترسم أقدام من تأثر بهم من الأقدمين ، وهو خلال ذلك لا يترك الجهاد إلا استعداداً لجهاد آخر يفتقر الى عنف كثير وصبر كثير ، والغاية التى يتطلبها من وراء ذلك عظيمة ، لا تلين إلا لمثل هذا النوع من الجلاد ، فهو يريد أن يخلق أسلوباً جديداً وتفكيراً جديداً ، ومازال يدأب ويجهد حتى وفق الى سعيه بعض التوفيق ، وضرب لعصره مثلاً عالياً للرواية التى تمثل أحسن تمثيل صفات قومه وأخلاق قومه . وهو — وإن لم يبلغ رواياته القمة التى لا تلين خياشيمها إلا للعباقرة فقد كاد . . .

ثم طفق ليسنغ يكتب فى احدى خلواته مقاطيع من الكتاب الذى خلد اسمه على الدهر فى عالم النقـــد ، كتاب [اللاوكون[1]] الذى حشر فيه خلاصة نظراته فى التأليف المسرحى . وفيه عالج الشعر وعُنى بأسلوبه والوسائل التى ترمى الى إحيائه .

وما هو مذهب ليسنغ فى الشعر ؟

لقد كانت المدرسة الريسرانية تعتقد أن الشعر إن هو إلا تصوير صامت . والشاعر الألمانى (ڤينجيلمن Winckelmann) كان يرد أصول الفن مهما تنوعت فروعها إلى مثل عال واحد تنضوى تحته . وهذا المثل هو العظمة المتجلببة بالسكينة . . . وهذا المثل الأعلى مثله كالبحر العميق يبقى هادئاً مهما تفاذفته قواذف الريح . وحاله حال تصاوير اليونان رقمى فى أحدى ثوراتها وأهوائها الجامحة تظل مالكة لعظمتها ولنفسها ، ومثل هذه الروح يمثلها تمثال (اللاوكون) بوجهه وأعضائه المتسلية فى ساعة الألم العنيف . وقد لام هذا الشاعر الألمانى شاعر إيطاليا الكبير (ڤرجيل) لأنه وصف (اللاوكون) بصورة شعرية خالف فيها الصورة التى نحتها الحفار . إذ تركه فى مقطوعته الشعرية يصيح من الألم صيحات منكرة ، ولكن ليسنغ يجابه فى كتابه نقد الشاعر الألمانى ، ويعتقد أن للشعر قواعده الخاصة ، وللنحت قواعده الخاصة ، ويرى أن فى استطاعة الفن الشعرى أن يمثل لنا الشىء حتى نحدق به من جوانبه . بينما أن الفن الثانى لا يمثل لنا من هذا الشىء إلا لحظة موقوتة هى كل شىء فى هذا الشىء . وبينما نرى الرسم يخضع للهيئة الجامدة التى يتلبس بها نرى الشعر حرا طليقا يحيا بحركته واضطرابه واختلافه . وهكذا لبث هذا الكتاب أثراً ناطقاً للرجل ، وقد ترك وراءه صدى بعيدا وتأثيرا ترامى فى الأقطار . وهو كما قال فيه (جوته) شاعر الألمان « يجب أن تكون فتى أيها الرجل حتى تستطيع أن تتمثل ذلك التأثير الذى أدخله هذا الكتاب فى أرواحنا » وكفى بهذه الكلمات التى يرددها جوته شهادة .

وهكذا أراد ليسنغ أن يبنى نقده على نظريات ثابتة لا يذهب بها الوهم . فاستمد قانون (أرسطو) يعمل به لتنظيف الأهواء ، ومن هذا القانون قد استمد ليسنغ أكثر نظراته النقدية كأنما كان يحاول أن يقتل الحدة والجموح والطيش فى الأدب ويترك إلى العقل سبيلاً ينفذ منه ليبقى مالكا على الأهواء فى أعنف ثورانها . وقد شاء ليسنغ أن يغزو حقل الأخلاق دأبه فى كل حقل يغزوه ، فكتب مقطوعات فى الحكمة دلت على سمو نفسه . فهو يعتقد أن قيمة الرجل ليست بالفضيلة التى يحرزها ، أو بالفضيلة التى ظن أنه يحوزها ، ولكن قيمته تنحصر فى الجهود التى يقوم بها فى سبيل إحرازها ، لأن المجد لا يتوقف على صفة الاحراز ، ولكن على العمل للفضيلة التى يكثر به جنودها . ويعتز هو بانتصارها . ويقول أيضاً « إذا الله قبض على الفضيلة الكاملة بيده اليمنى ووضع فى يده اليسرى التوق الخالد — توق القلب — الى الفضيلة . مازجا معه انخداع الانسان ، وقال لى : انتخب ، فانى إذ ذاك آخذ بيده اليسرى بكل تواضع وأقول . أعطنى يا إلهى .

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

(١) Le laocoon هو كاهن عظيم خنقه وأبناءه صلان خرجا من الأمواج [أساطير اليونان]